

من صور العباقرة

هانيبال

بقلم حسين مؤنس

لنكن على حذر حين نلتبس اخبار هانيبال ، فهذا رجل وكّل أمره لأنصاف خصومه ، وترك ترائه في رعاية أشد الناس عداوة له ، وتولى تقدّعه إلى الناس أحفل الناس بيمينه ؛ فهو مظلوم من بوليبيوس ، مغضوب عليه من نيت ليف ، مهضوم الحق عند الكثرة الغالبة من رواة عصره وقضاة زمانه ، ولكنه برغم هذا كله بارز لا يحتاج عظمته إلى البيّنة ، ظاهر لا يعوز عبقريته البرهان ؛ وإن الشهادة له لتبدر من الخضم حين يتخونه الحذر ، وإن فضله على أعدائه لتقوم عليه البيّنات والحقائق وإن أعوزته الألفاظ والمبارات ؛ وهذا بوليبيوس يتحدث عن آل سيبو فيطيل الحديث ، ويكون قصارى ما يتأتق فيه من دلائل نبوغهم أنهم أخذوا فنون الحرب عن هانيبال ، وأن أشهرهم المعروف بالأفريق أخذ عنه وتفطن لأساليه وحاربه بها في زامان . ولعل سبب هذه الخصومة هو أن الرجل كان شقيقاً ، لا هو

فما بذل وهو أليق بالهوى وأما بمرّ وهو أليق بالملك (١)
وقد أخطأ من نسبهما إلى ابن الأحمر ، فقد أوردهما صاحب الرقص والطرب (٢) وهو مصنف موجود قبل ابن الأحمر بألف وخمسة سنة . وهذا المعنى من البيتين واضح اتضح التمسق نصف الليل في ثمان وعشرين من الشهر ، وضياء الباطل إذا جاء الحق ، إن الباطل كان زهوقاً ، ولله درنجم الدين الكاسي ديران حيث قال يخاطب الشريف الرضي :

وليس يصح في الافهام شيء إذا احتاج النهار الى دليل (٣)

هذا مثال من هذه الرسالة العجيبة ، تقف عنده ، لأنجاوزه الى القول في البديع والعروض والقافية لأن المقال قد طال ، ونخشى أن يعلّ القراء الكرام على

عن الطنطاوي

(١) ابن سكرة شاعر بنداوي ظريف ، والشعر للملك تميم بن المز

(٢) لأبي سعيد المغربي متأخر

(٣) نجم الدين متأخر عالم بالفتولات والشريف معروف والبيت للشعبي

رومانى ولا إغريق ، وإنما هو فينيقي عريق ، وكانت الخصومة مشبوبة في ذلك العصر بين الشرق والغرب ، وكان الزمان قد استدار وصار اليوم للغرب ، ورفرت رايانه وخفقت بنوده ، حملها الاسكندر وخلفاؤه زماناً ثم تركوها للرومان ، وكان الفينيقيون قد ضاقت بهم الأرض في المشرق فالتجروا الرزق في المغرب ، وأقاموا المراكز والمدن على شواطئ افريقية وأسبانيا وصقلية وجنوبي إيطاليا وفرنسا ، فلما نهض الرومان وجدوا الفينيقيين في طريقهم أينما ساروا ، وكان مركز قيادتهم قد انتقل من صور في المشرق إلى قرطاجنة في المغرب ، ومن هنا كانت الخصومة بين روما وقرطاجنة ، ومن هنا كان تعصب مؤرخى الرومان على هانيبال ، ومن هنا كانت ضيعة قضيته عند القضاة ؛ فلنلتبس اخباره في حذر . . . ولنحاول أن نشهده عن كتب ، وأن نفشى اليه ونصاحبه حياته الحافلة بالأحداث ، الخصبة بالوقائع والبيانات

ها هو ذا في مجلسه على شاطئ الرّون ينظر إلى جيشه الكبير يعبر النهر صفّاً طويلاً وقد طال به الجلوس وطال به الانصراف إلى هذا الشهد حتى لا يدري أهذا مطلع النهار أم مقبل الليل ؛ وكيف له التمييز وهذه أيام ثلاثة بلياليها تقضت وهو في مجلسه هذا شاخصاً إلى أجتاده وفرسانه وقبيلته وهي تمير النهر على مهل ؟ . . . وأين له الراحة أو الانصراف عن التفكير وهو يعلم أن الرومان قد علموا بأمره وأنهم ساعون في أثره مرسلون قوادم خفافاً للحاق به والقضاء عليه ؟ . وهذه عيونته تنبئه بأن مارسلون ماض في الطريق اليه ، وإنه ليخشى ذلك كثيراً ، إذ كيف تكون العاقبة لو لحق به الرومان وهو يعبر النهر ؟ . إذا لقصوا عليه في يسر وهينة . ثم هذه عيونته تنهى اليه أن آل سيبو يثيرون عليه الناقدو يقيمون عليه قيامة الشعب . فإذا متع الضحى فقد أقبل عليه رئيس فرسانه ينبئه بأن الجيش قد فرغ من العبور وأنه لم يبق في الضفة الأخرى إلا شرادم من المشاة وأشتات من المؤون التي لا يؤذي ضياعها . هنالك ينهض الرجل الذي أجهده الأعباء وثقلت عليه قلة النوم ، ويأوى إلى فسطاطه . . . ويطلب النوم فيسرع اليه النوم . ولكنه على رغم ذلك مضطرب ما يزال . . . وان الذكريات لتسمى اليه في الحلم فتروعه

هذا هو أبوه مملكار يخطو اليه رهيباً جليلاً . . . يذكره بهمه الذي قطمه على نفسه وهو ابن سنوات تسع ، وهذا صوت

ويبتلع القادة ابتلاعاً . وهذه تريبا تشهد يوم أجبر هانيبال المدو على النزول إلى الميدان في البكرة القارسة والشمس لا تزال في خدرها ، وكيف انسابت الكائن من فرسان نوميديا على جوانب الجيش الروماني فأكلته أكلًا ... وهذه تزامين تذكر يومها المبوس من شتاء سنة ٢١٧ .. هذا هانيبال يخفي جنوده في باطن الجبل المطل على أمواه البحيرة ، ويترك متهم تقرا يناوش القنصل فلأمينيوس ، ويتقدم الروم ثم يندفعون اندفاعاً شديداً .. فإذا انتهوا إلى ساحل البحيرة فقد ألقوا أنفسهم في وابل من نبال الغال ، ونار من فرسان النوميديين ، وإذا المدو يد عليه طريق الرجوع ، وإذا الماء يعين عليهم الخصم .. وإذا هزيمة ساحقة لم ينج منها إلا نفر مضى إلى روما يزلزل أهلها بالمصيبة النازلة ، والفاجعة التي لم تدر .. وهؤلاء أهل المدينة صرعين ، قد انتابهم هلع شديد .. إذ ترى إلى أسباعهم أن الرجل قاصد اليهم .. ثم ها هو ذا على أميال من روما .. ليس من الموت بدا ! ولكن هانيبال لا يتقدم ، إنما يطوى عن المدينة ويتجه إلى الجنوب ترى ماذا صد هانيبال عن روما ؟ كانت الحصون واهنة والجيوش منكسرة ولا يكاف الاستيلاء على المدينة إلا أقل الجهد .. ولكن هانيبال كان يرجو شيئاً آخر .. كان لا يريد أن يقتل الفريسة دفعة واحدة وإنما يقطع أعضائها عضواً عضواً ، ويمزق أشلاءها شلواً شلواً : ثم بدعها تموت ؛ كان يرجو أن يمزق جسد روما جزءاً جزءاً ويتر مستعمراتها عنها على مهل ! لم يمزق الرومان أملاك قرطاجنة واحدة فواحدة لكي تموت على مهل . هكذا كان يريد أن ينفذ انتقامه الشديد — ولهذا مضى يشير أنصار روما ويؤلب عليها أحلافها .. إنه ليمان أنه أقبل ليحارب الرومان لا الايطاليين ، وإنه ليطلق الأسرى الايطاليين دون الرومان ، وإنه ليكسب من هذا كسباً عظيماً .. هذه « كيو » تسارع اليه بقواتها وأحلافها .. وهذه المدن الأغر يقية في « تارتيم » تمنن ولادها .. وهؤلاء هم الرومان يشتد بهم الخوف فيختارون « فايوس » لهم قنصلاً .. فيخطط لمحاربة هانيبال خطة صارت علماً عليه في التاريخ : هي أن يجنب نفسه وجيوشه لقاء المدو في موقعة حاسمة .. بل يناوشه ويتخطف جنوده ، ويقفل طريق الامداد من الشمال .. ومضى على ذلك حتى يضمف أمره ويفني جنوده .. ولكن الرومان لا يطيقون صبراً .. إن هانيبال ليفسد عليهم جيранهم وأتباعهم .. ويتلف مزارعهم ويهدم حصونهم

الصبي الصغير يتردد على سمه وانحاً بينا ، إنه يقسم أن يكون عدواً للودا روما إلى الأبد
وها هو ذا يرى نفسه صيباً وفني يافماً ، ثم رجلاً في مداخل الرجولة ، إنه ليمضي الوقت في فقار اسبانيا ووهادها ، لم ينصرف إلى شيء مما ينصرف إليه الثبان ، ولم يترك لنفسه فرصة للراحة أو الدعة ، وإنما اشتد على نفسه عشرين سنة كاملة حتى أوفى على الثلاثين ... حتى إذا اكتمل الأهبة ، فقد اتخذ سبيله إلى ايطاليا ، وكان الرومان قد أخذوا عليه سبيل البحر بعد أن قضا على أسطول قرطاجنة ، ولم يبق له إلا أن يمضي فيخترق هذه الجاهل الجافة حتى يصل إلى سهول ايطاليا ؛ ولقد فصل عن قرطاجنة الجديدة وهو في تسعين ألفاً قهاوى منهم الآلاف في الطريق تعباً واجهاداً ... ولولا بقية من أمل معقودة بلواه فرسان نوميديا ، لأدركه اليأس وكر راجعاً إلى بلده ...

هكذا كانت حياته : واقع أشبه بالحلم ، وحلم أشبه بالواقع ! إنه بنام ليحلم بحرب روما ، ويقوم ليمضي لخراب روما . ومضى أمامهم فمضوا من خلفه ، وهم أشد ما يكونون رهبة من هذا الذي يمضي بهم اليه ؛ إنهم ليسمعون رهبة من هذه الجبال السامقة التي تطل عليهم وتندرم بالموت .. وأين لأبدانهم المتعبة أن تتوكل هذه النجاد الوعرة ، وأن تنحدر على هذه الصخور القاسية ؟ وأين لجسومهم العزم الذي يخوضون به هذه الركام الثلوجة التي تبهر عيونهم على فن الجبال .. ولكنهم لا يملكون لأمر قائم دفماً ... بل هو لا يملك لأمر نفسه دفماً . وإنه ليمضي ليوفى عهد أبيه لا يكاد يظن إلى شيء مما حوله . فها هو ذا في مقدمة الجيوش يصعد في اعياء وسير في عينة ، والجنود يتساقطون من حوله اجهاداً ، والحيل تنبت من تحته نافقة ، وهو في طريقه لا يبين .. حتى ينهوا إلى السهول فينحدروا إليها سراعا هنا ترجع بنا الكرة إلى معبد « بمل » في قرطاجنة ... تلك هي القديسة تضطرب تحت يد ملكار الذي يقدمها إلى الآلهة طاعة ونسكا .. وتلك هي روما تضطرب تحت يد ابنه هانيبال الذي يقدمها إلى أبيه قرباناً زكياً . وهؤلاء هم الرسل مقبلين على مدينة التلال السبعة يرجفون بالأخبار وزعزعون المزمات من رهبة الوعيد ، ويضطرب الأسرى الرومان اضطراباً شديداً ، ويقذفون بجيوشهم إلى هانيبال في شجاعة واقدم حقيقين بالاعجاب .. والقرطاجني متربص يقني الجيوش فناء ،

ويساعد بين الجندي والجندي حتى ليدع بينهما طريقاً رحباً . .
ثم يقبل هانيبال . . ويدور فرسانه فإذا هم وجهاً لوجه أمام فرسان
سيبيو . . فيفسحون لهم الطريق ، فيندفع هؤلاء إلى ما وراء الجيش
وهناك ينتظرون . . وتشتد المعركة ، وينار النقع ، حتى إذا بلغ
الأعياء من جيش قرطاجنة أقبل فرسان الرومان فقتلوا عليهم
قضاء أخيراً . .

أليست هذه أساليب هانيبال؟ أليست تلك خطته في كانى؟
وإنها ليينة واضحة على عبقريته ، وآية باقية على ما خلف للعالم
من آراث

ويخف هانيبال إلى قرطاجنة ، ويأمر بأسوارها أن تقفل
ويسودها المهرج والاضطراب ، ويجتمع مجلسها ويتماحب الخطباء
منادين بالحرب والتأر . . ولكن الرجل لا يطبق . . إنه يعرف
خصمه جيداً فينهض ويسكت الخطيب . . ويمتذر لمواطنيه عن
هذه الجفوة التي لا يحصى له عنها بعد ست وثلاثين سنة في
ميادين الحروب . . ثم يوافق على شروط الصلح التي قدمها سيبيو
ثم يبدأ صراع هو أشبه بصراع المائة يوم بين نابليون
وخصومه . . ولكنه يطول سبع سنوات ، يصير الشيوخ في
السناتو على القضاء على الرجل . . ويطلبونه ويجدون في طلبه . .
وهو لا يفقد الأمل في الغلبة عليهم والانتقام منهم . . لقد فشل
في أن يشير عليهم الغرب ، فلم لا يقيم عليهم قيامة الشرق؟ . .
ها هو ذا يخف إلى بلده « صور » ، فإذا هي ترمد فرقا من روما
وجيوشها فيفصل عنها إلى « إنطاكية » حيث يستقبله ملكها
اثنينوكس ، إذ كان بعد حملته على روما . . ويدبر معه الأمر . .
ويرسم معه مشروعاً خطيراً . . ولا يكادان بشرعان في العمل حتى
يقاجهما الرومان فيقتضوا على أثينوكس في داره فيفر إلى بيثتيا
حتى يلقاه ملكها مرحباً . . ويأويه ويكرمه

ولكن الرومان لا يسكتون عنه . . ويطلبونه ويجدون في
طلبه . . وإنه لجالس ذات يوم في ملجئه . . إذ أحس اضطراباً
وسمع وقع أقدام جنود يقرعون منه . . فتأدى بخادمه . . وأمر
بالسم فأتى به إليه . . وقال وهو يذني الكأس من شفثيه :
« لكي تستريح روما إذا كان لا يرضيها أن تترك شيخاً في الستين
يموت على مهل »
صحين مؤنس

ويعضى من بلد إلى بلد ، تاركاً جنوده يأتون من الأصر ما يجربون
ويعصبون من العدو ما تصل إليه أيديهم ، حتى يضيق ذرع
اللاتين فيمزلوا قايوس ويولوا تنصلاً آخر يعضى . . سرعاً حتى
يلتى هانيبال في « كانى » على ساحل الأدرياتيك ، وهناك تظهر
قدرة الرجل في الحرب في أجمل آياتها . . إنه ليصف جنوده
صفوفاً طويلة تكاد تخفى جناحى الفرسان . . وإنه ليلقى العدو
ويتثنى قلب جيشه حتى يصير الصف نصف دائرة تحتوى الرومان
ثم يقبل الفرسان فيقتضون على العدو قضاء مبرماً

ندع هانيبال في سيره إلى جنوب شبه الجزيرة ونخف إلى
روما لنشهد اضطراب الشيوخ وهياج الشعب واشتداد الأصر
ولنشهد مشهداً من أسدق مشاهد الرجولة القوية والبطولة
الخالدة . . إن « آل سيبيو » لا يخفت لهم صوت ولا يضمف لهم
أمل . . لقد مات الاخوان في وعود اسبانيا ، وها في طريقهما
إلى بلادها بعد أن استوليا على « قرطاجنة الصغيرة » قاعدة
هانيبال في ابريا ، وشطرا شبه الجزيرة كلها عن القرطاجنى
حتى حصروه حصاراً شديداً . . وها هو ذا أخوه « هازدروبال »
أخو هانيبال يجمع له ما تيسر من فلول المرتزة ويعضى إلى إيطاليا
فيلقاه الرومان ويفتكون به ويقتلونه . . ثم يحملون رأسه إلى
أخيه ويلقون به بين يديه

ثم ينهض سيبيو الصغير ويقود حملة من أعنف حملات التاريخ؛
فهذا قى في الخمامة والمشرين ولكنه رومانى عزيز . . إنه
ليقطع شبه الجزيرة على عجل . . ثم يركب البحر إلى صقلية
ثم يخف إلى أفريقية وينزل على مقربة من قرطاجنة ثم يبدأ يصنع
في أفريقية ما يصنعه هانيبال في إيطاليا . ١

هنالك يتأمل هانيبال رأس أخيه الشهيد ويستمع إلى أخبار
سيبيو فتأكل الحسرة قلبه ويفزع على مصير قرطاجنة ، ويسرع
لنجدها . . ولا تكاد قدمه تمس ترى أفريقية . . حتى تسرع
نحو سيبيو . . فيعضى هذا أمله . . ولم يكن أخطر على الجيش
الرومانى من هذا المضى الذى يباعد ما بينه وبين الشاطى . .
ولكن . . انظر إنه ليشير التوميديين على قرطاجنة ، إنه ليطويهم
تحت رابته خلفاء أقوياء . . ثم يثبت لهانيبال عند « زاما »
ويرسل فرسانه في طرفى مشابيه . . ويصف الجنود صففاً طويلاً ،